عبد القادر حمزة و « المقالة الافتتاحية »[1]

على غير تعارف بيني وبين الأستاذ الجليل عبد القادر باشا حمزة — رحمه الله — كنت أكن له في نفسي من الإجلال والإكبار ما نما وترعرع على الزمن : لكريم سجاياه ، وكمال رجولته ، ولما كان يحمل من قلم بارع ، ولما اختطه لنفسه من أسلوب شائق في الكتابة السياسية

ولقد كنت أحس من أسلوبه هذا أنه كان يرمي إلى إحياء عهد (المؤيد) و (الجريدة) في إعلاء شأن (المقالة الافتتاحية) ورفع مستواها

فقد كان (المؤيد) يمتاز من بين صحف ذلك الزمن بمقالاته الممتعة التي كان يطلع بها على الناس صاحبه القدير ، والتي كان لها من الشأن في مصر والشرق ما لا يمكن أن يصفه إلا من حضر ذلك العهد وشاهد عظمة (المؤيد) وقوة سلطانه

ولقد كنا معشر الشباب إذ ذاك نرقب (المؤيد) عصر كل يوم — ولا سيما في الأزمات والأحداث الجسام — فنتخاطفه فيما بيننا . فلا والله ما كانت تمنينا حوادثه ولا أخباره ولا برقياته فهذه كانت قدراً مشاعاً بين الجرائد جميعاً ؛ وإنما كان همنا المقال الافتتاحي : في شائق أسلوبه ، وبارع نقاشه ، ولاذع سُخره ؛ وفيما كان يعالج من مشكلة اليوم أو مشكلاته ، وفيما كان يتناوله أحياناً من أدب أو اجتماع أو نقد أو وصف ، أو مُقارعة قِرْن أو مناهضة نِد

فلا غرو أن كان (المؤيد) في الحقبة الطويلة التي عاشها أثر لا ينكر في نهضة الكتابة المرسلة ، وترقية الفنّ الجدليّ ؛ فقد كان الشيخ علي يوسف مجادلاً من الطبقة الأولى ؛ ولا غرو أيضاً أن أحل الشيخ مؤرخو الأدب بالمكانة اللائقة به بين كبار المترسلين في عصره ، وهو عصر لم يكن قد خلص خلوصاً تاماً من رِبْقة السجع وغثاثة الأساليب الكتابية في مصر والشرق العربي

ومقالات الأستاذ الحكيم أحمد لطفي السيد باشا في (الجريدة) أشهر من أن تعرف ، فقد عنى بها النقاد ، وأطراها المتأدبون ، وتحدثوا عن عمقها ، وبُعد غورها ، ونصاعة أسلوبها ؛ غير أنه لم يتح لي أن أطلع إلا على قليل منها

ومنذ قريب رأيت للأستاذ الدكتور زكي مبارك نقداً في (الرسالة) لمجموعة منها ، انتخبها الأستاذ إسماعيل مظهر من أعداد (الجريدة) ، وطبعها وقدم لها . وإني لعلى أمل أن أدرس هذه المجموعة وأعلق عليها في (الرسالة) استكمالاً لهذا البحث

* * *

ودارت الأيام بعد (الجريدة) ، ومرت السنون ، وكنت في غضونها أتفقد الصحافة السياسية ، في مختلف نزعاتها وأهوائها لعلي أظفر بذلك الضرب من المقالة الافتتاحية ، تلك المقالة التي تشف عن علم وإحاطة ، وتكشف عن الحقيقة فيما يُعالَج من أمر وتشعرك بالثقة بأنك إنما تقرأ جداً لا لغو فيه ولا عبث — كل أولئك في سلامة تعبير ولطف تأت وبعد عن التعقيد والحشو — حتى جاء عبد القادر حمزة على ظمأ ، فحقق الرجاء

* * *

أدركت (الأهالي) أول ما صدرت بالأسكندرية ، ولم أكن قد قرأت بعد شيئاً لعبد القادر حمزة ، ولم يكن الرجل حينئذ نابهاً بين الكتاب ، ولكن لَسُرْعان ما التفتت إليه الأنظار وتحدث عنه الناس ؛ إذ لمحوا في (الأهالي) صفات غير التي يعهدون في الصحف ، ورأوا فيها طرافة ، ورأوا فيها خروجاً على المألوف المملول

وهنا بدأ عبد القادر ينشئ مقالاته على طريقته الفذة ، وهنا أيضاً بدأ القراء يتذوقون فناً جيلاً من التعبير ، ولوناً شهياً من ألوان التحرير

ولم تُعمَّر (الأهالي) ؛ بل اختُضرت وشيكا ، وجاء (البلاغ) ، فوصل فيه عبد القادر ما انقطع ؛ وطفق يعمل غير وان ولا فاتر . ونضجت (المقالة) على مر الأيام ، وصقلتها المرانة وعادت تحمل طابعَ كاتبها ، وتمتاز بصفات لها وحدها

وإذا كان الناس قد شغفوا بمقالات عبد القادر ، فإنما ذلك لإيجازها وسلاستها واستيعابها وبعدها عن الإسفاف والتهاتر ؛ حتى لقد كان في مصارعة الخصم ، ومنازلة المنافس ، لا يحمل غير المنطق سلاحاً للصيال . والمنطق — كما قد تعلم — من خصائص أسلوب عبد القادر المتغلغلة في صميمه

(١) The leading article وبعضهم يسميها المقال الرئيسي

كان على يوسف يدعو لرأى سياسى ؛ وكذلك كان عبد القادر حمزة ، فعمدا كلاهما إلى أن يصلا إلى قلوب الجماهير فى يُسر لا تكلف فيه ، فتوخيا سهولة العبارة ، وجانَبا النابى من الألفاظ ، والمستَصعبَ من التراكيب ، كما جانبا الزخرف والتعمل والتفصح ، فجاء الأسلوبان من السهل الممتنع حقاً .

على أن الرجلين نبتا فى عصرين مختلفين كل الاختلاف : فلم تكن الكتابة — كما أشرنا آنفاً — قد نهضت بعد فى عصر على يوسف ، بل كانت تحبو إلى النهوض . فليس غريباً إذاً ألا تخلو مقالاته — على ما فيها من حياة وقوة — من زلات لغوية وتركيبية ، وأن يتداخلها أحياناً شىء من ضعف التأليف ، نلحظه دائماً فى كتابات ذلك العصر .

ولا كذلك عبد القادر حمزة : فقد نشأ فى بيئة غير تلك ، وعصر نُبِّهت فيه العربية ، ونضجت الأقلام ، حتى إنَّ مصر لتُباهى فيه بكتاب هم بلا شك من مفاخر العربية .

هذه إلمامة عامة مجملة . وتفصيلها يقتضى بحثاً طويلاً ، ودراسة مسهبة لهؤلاء الرجال وأزمانهم وثقافتهم ، ثم كتاباتهم ، وكيف كانت أولاً ، وكيف تطورت ، وعوامل كل أولئك ونتائجه . ولا شك أن تاريخ الأدب الحديث سيقول فى ذلك كله قوله الفصل .

(ا . ع)

إلى الأستاذ محمود شلتوت

ورد فى مقالكم القيم (الإسلام والعلاقات الدولية) العدد ٤١٥ من الرسالة الغراء عن أسرى الحرب فى الإسلام ما يلى : وخير الإمام بين إطلاقهم من غير مقابل وفدائهم على حسب ما يرى من المصلحة . وقد مَنَّ صلى الله عليه وسلم وفادى بالمال وبتعليم الأسارى أبناء المسلمين الكتابة . أما استرقاقه صلى الله عليه وسلم أو إباحته للاسترقاق فقد كان مجاراة لحالة اجتماعية سائدة فى الأمم إذ ذاك ولم يكن على وجه التشريع العام ، وإنما التشريع العام فى ذلك قوله تعالى : « فإما منًّا بعد وإما فداء »

فهل لنا يا سيدى الأستاذ أن نفهم من ذلك أن الرق فى الإسلام من قبيل الأحكام التى تزول بزوال أسبابها ومقتضياتها كتركه صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بالناس معللاً هذا الترك بقوله : إنى خشيت أن تفرض عليكم . حتى إذا ما أكملت الشريعة وفصلت الأحكام وانتقل النبى الكريم إلى الرفيق الأعلى وزالت خشية فرضيتها جمع عمر بن الخطاب الناس عليها وقال : نعم البدعة هذه ؟

وكذلك ما ذهب إليه كثير من فقهاء السلف والخلف من إسقاط المؤلفة قلوبهم من سهم الزكاة مع أن الآية بظاهرها قد جعلت لهم نصيباً مفروضاً منها ؛ قال تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم) الآية ٦٠ من سورة التوبة، وقالوا إن إعطاءهم هذا السهم إنما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام إذذاك فى قلة وضعف . وقد زال ذلك بظهور الإسلام وإعزازه واستغنائه عن تأليف القلوب لدخولها فيه أو كف أذيتها عنه . ولهذا فإن الخلفاء الراشدين لم يعطوهم شيئاً . وقال عمر إنا لا نعطى على الإسلام شيئاً فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . وقد اشتد فى رده الأقرع ابن حابس المجاشعى وعيينة بن حصن الفزارى فى خلافة الصديق رضى الله عنه وقال لهما : اذهبا واجهدا جهدكما ، لا أرعى الله لكما إن رعيتما . لقد تألفكما رسول الله والإسلام قليل

وقد تغيرت اليوم الأوضاع الاجتماعية للأمم وأصبح الرق السائد فى الأمس يكاد أن يتواضع الناس اليوم على أنه إضرارٌ وجريرة كبرى . فهل لنا يا سيدى الأستاذ فى مجاراة هذه الحالة السائدة اليوم أن نمنع الرق فى الشريعة الإسلامية كما منعنا سهم المؤلفة لزوال المقتضيات والأسباب ؟

وتقبلوا فائق التحية والاحترام .

محمد كامل الحمامى
نزيل القاهرة

تصحيح مثل

قرأ البلاغيون فى بعض الكتب من ضمن الأمثال قول القائل : « النحو فى الكلام كالملح فى الطعام » وهو قول كما ترى فاسد خاطئ ، فأتعبوا أنفسهم فى نقده وتشريحه ، وإيراد التأويلات المختلفة لتصحيحه وتسويغه ؛ فقال الخطيب القزوينى فى كتابه (الإيضاح) ما نصه : « وإذا علم أن وجه الشبه هو ما يشترك فيه الطرفان — يعنى المشبه والمشبه به — علم فساد جعله فى قول القائل : (النحو فى الكلام كالملح فى الطعام) كون القليل مصلحاً والكثير مفسداً ، لأن القلة والكثرة إنما يتصور جريانهما فى الملح ، وذلك بأن يجعل منه فى الطعام القدر المصلح أو أكثر منه دون النحو ، فإنه إذا كان من حكمه رفع الفاعل ونصب المفعول مثلاً ، فإن وجد ذلك فى الكلام فقد حصل النحو فيه ، وانتفى الفساد عنه ، وصار